شرَك الشّيطان

بقلم: الفرحان بوعزّه

هاجمتني العواصف منذ الصّبا وتذكرت، فكانت الذكريات تنخر ذهني بلا حدود ، والورقة النقدية المشؤومة غدت سجناً بلا قضبان .. وصوت الرّجل يناديني من بعيد.. ردّ الورقة يا طفل !..

الآن أفرك كفّي من صدأ الذّنب الكبير، والخناجر الصّامتة تنهشني بدون توقف. ماذا أقول في زمن الزّلزلة..؟ لقد أنبأ الله بها من قديم.. ماذا أقول لمحقّق القبور بعد الشّهقة الأخيرة..؟

كان الزّمان يقضم الوقت ثانية ثانية، وخيوط الشّمس تغنّي في السّوق معلنة حرباً على الضّباب، فتراء ت لي رؤوس البشر كحبّات السّبحة متناثرة، جاءت من كلّ فج عميق تبيع وتشتري ما تريد.. في هذا اليوم بالذّات، اقتربت من السّعير. نصب الشّيطان لي فخّاً كالطّائر الجائع فرغت حوصلته من الحبوب، حينما وقف الرّجل أمامي منتصباً، وهو يعدّ أوراقه النّقديّة . كنت أرقبها وهي ترتجف بين أنامله الخشبيّة.. كاد الانتظار يكسر أنفي، فانفلتت ورقة نقديّة وسقطت على الأرض، وبسرعة خاطفة، وضعت عليها رجلي

اليمنى، وخنقتها فلم تعد ترى النّور .. لم أتحرّك ولم أتململ من مكاني. كدت أفقد توازني، فسحبت رجلي اليسرى في تؤدَة، ثم استويت في وقفتي..

أعطاني الرّجل النّقود التي كانت ديناً لأبي عليه، بعدما أتمّ العدّ، وهو ينتظر انصرافي. نظر إليّ في ارتياب كأنّه يجرّدني من ثيابي، فخفت أن يفتضح أمري، لكنّ الرّجل خرج عن صمته، وقال بعدما ترك لي الفرصة لإعمال الفكر واختبار الذكاء:

هيّا انصرف، يا لوقاحة أطفال اليوم ..! ما عهدنا هذا في زماننا ..! قالها بنبرة حادّة، بعدما نعتني بالغباوة. ابتسمت ابتسامة حمقاء، قلت في نفسي : لا غباوة أفدح من غباوتك يا عمّي علال..! وفي رمشة عين، أسقطت كلّ الأوراق النّقديّة، فاختلطت جميعها، انحنيت عليها كالعقاب وجمعتها دون ترتيب .. وحلّت المشكلة في نظري!..

رددت النّقود إلى أبي، واحتفظت بالورقة النّقديّة الفائضة .. لم أبدرْها، ولم أشتر بها حلوى أو مأكل، رغم أنّني لا أجد ما أملأ به معدتي .. طعامي الدّائم هو كسرة خبز، وماء بارد، وكأس شاي ساخن .. قمعت الشّهوة في مهدها وأحكمت الحزام على بطني .. أتدري ما اشتريت بها ..؟ كتباً مستعملة وأقلاماً ودفاتر .. وكنت

مسروراً بالصّفقة المربحة!....

على ضوء المصباح الزّيتي ، كنت أقرأ كتاب"النّظرات" للمنفلوطي، أكاد ألتهم سطوره قبل أن يغلبني النّوم ... قرأت من بين ما قرأت : أتدري ما هو الخلق عندي ..؟ وما أن أتممت النّصّ حتى انتفضت كالمحموم، فتشككت في خلقي، وشعرت بانعدام المسؤوليّة أمام الضّمير ...ضيّعتُ الفضيلة التي كان يحثّ عليها أستاذي، كان – رحمه الله – يجتهد في تهذيب ضمائرنا، بترسيخ قيم الفضيلة والدّعوة إلى نبذ الرّذيلة كالخيانة والطّمع، وكلّ سلوك مشين لا يتماشى وشريعة الله .. فقلت محدّثاً نفسي:

سرقتَ اليوم، وما قدّرتَ الفضيلة حقّ قدرها..! قلتُ: كلّ النّاس يسرقون. والحاجة تدفعهم للسّلب والنّهب.. وأنا ما نهبتُ إلّا ورقة نقديّة.. ماذا تقول يا طفل..؟ سرقتَ الرّجل الفقيه الذي أطعمك مع أولاده بالأمس!..

لفّت الحيرة رقبتي، فصمّمت أن أردّ الورقة النّقديّة إلى صاحبها عندما أشتغل..؟ نسيت القضيّة، وغافلتني الأيّام ، فمرّت تجري كنبع لا يتوقف، والزّمان يقود أيّامه إلى الأمام، والحزن يركض وينتفض في صدري .. يعتصرني القلق ، ويستبدّ بي كلّما رأيت تلك الكتب فوق طاولتي..

أطفأت ذبالة المصباح الزّيتي، ونمت نومة المكروب، فتراءت لي حبال من نارّ تجلّد جسمي، وتلتفّ حول عنقي، تضغط وتضغط، وأنا أحاول إدخال أصابعي بينها وبين جلدة عنقي، فأفقت مذعورًا والعرق يتصبّب داخل منامتي، برد جسمي وكأنّ جليداً يسلخ جلدي . فصمّمت أن أبيع غداً تلك الكتب عسى أن أضعف من سطوة الذّنب المؤرّق..

تداولت الأيّام بين الناس، والذّكريات تطوى كطيّ السّجلّ للكتاب، وحادثة الورقة النّقديّة نائمة كفتنة قابلة للاشتعال في كلّ حين..

توظّفت بعيداً عن قريتي، اشتغلت بالتّعليم، ولا أرجع إلى مسقط رأسي إلّا بعد انتهاء الموسم الدّراسيّ . كنت أجوب في نفس السّوق، والخلائق البشريّة تنغل كالنّمل داخل فضاء فسيح، فإذا بالرّجل الذي قابلته منذ سبع سنوات يخطو بخطوات وئيدة أمامي . انجلى غبار النّسيان عن تلك الذّكرى الأليمة، فدخلت في كهف شجن عميق، وشعرت بصخرة الخطيئة تضغط من جديد . لا زال المشهد حيّاً. وأنا أنقض على الورقة النّقديّة، اضطربت أصابعي، تملّكني الخوف والرّعب، وشابتني صفرة قاتمة. كنت أتوقف بين الحين والآخر متخلّفاً بعض الشّيء عن أخي ، ارتاب في أمري،

فسألني ما بك..؟ أجبت حالة عابرة فقط ..؟ لا تهتمّ بالأمر!..
تذكّرت الوعد الذي قطعته على نفسي، فجريت وراء الرّجل ، لكنّه غاب بين الحشود. فمعالم السّوق البدويّ لم تتغيّر. بحثت عنه فوجدته في المكان المعتاد . وقفت مشدوهاً، فرأيت وجها بدلته قسوة تقاس بسبعة أعوام . كان الرّجل قصير القامة، عريض الكتفين، ذا لحية بيضاء، تظهر عليه بلاء السنين . واليد الخفية التي خطّت تلك السّعادة الهنيّة قد مسحتها الأعوام الطّوال، فانسحب الدّم عن الوجه الوقور، فبدا شاحباً .. خطوت نحوه في تؤدّة، وسلّمت عليه فقال:

من ..؟

. أنا ولد فلان ... يا طيّب ، يا فقيه!..

. أهلا وسهلا، والله طالت غيبتك ، أصبحت رجلا يا سعيد...

. الزّمن يغيّر يا عمّي علال، وأنت تعرف العمل خاصّة في بلاد قصية..

تعثّرت الكلمات في فمي، فوددت أن أكسر حاجز الصّمت المؤقّت، وأنزع السّدادة عن فكري، فكانت الكلمات تطير إلى أذنه المائلة صوب فمي . في تتابع وأنا أرفع من صوتي .

. يا عمّي علال، أنت ضيف عندي. هذا وقت الغذاء، وغذاء

السّوق لذيذ، خاصّة نكهة الشواء..

تلّكأ الرّجل قليلا، فأقسمت عليه، وكرّرت القسم مرارًا..

. لا بأس ، أكرمك الله ، هيّا بنا!..

تناولنا الغذاء، ونحن نغوص في أحاديث متفرّقة، ننقضّ على الأحداث من آخرها، ولا نستقرّ على موضوع .. فقلت :

. خذ هذه الورقة النّقدية، فهي لك، وهي دراهمك، سرقتها منك في الأيّام البالية ... لما كنت في الإعدادي، وهذه مثلها. أرجوك أن تسامحني يا عمّي علال في الدّنيا والآخرة ! ..

استغرب الرّجل لما سمع كلامي، فشخص بعينيه إلى الفضاء، ابتسم وقال :

حقّا أنا المغفّل آنذاك ..! هوّن على نفسك.. قال تعالى: "وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .." فالتّوبة حصلت، وبإذنه يرفع عنك غضبه . هيّا بنا فتبعات السّوق لا تنتهي، وسنتمّ حديثنا في القرية إن شاء الله.